

المعجم المدرسي وحاجات الطفل الحقيقية:

حصاد البحوث العلمية حول ميلاد الكلمات وتطورها الكمي والنوعي ودورها في دعم التأليف والتخطيط الخاص بالمعاجم المدرسية.

الدكتور: عبد الكريم جیدور.

مركز البحث العلمي والتقني لتطوير اللغة العربية-

وحدة ورقلة.

karimn2000@gmail.com

الملخص:

تخبرنا التحقيقات العلمية المعاصرة عن عبقرية الطفل الصغير وشغفه المدهش نحو التعلّم، وتفتح في دماغه خلال الأشهر السبعة الأولى من ميلاده نوافذ مشرّعة تحدوه إلى التقاط كل معرفة ممكنة من العالم الخارجي، ويظهر التصوير الطبقي بنظام (MEG) حدوث أكثر من 700 اتصال عصبي في الثانية الواحدة تتوزع باتساع ونظام دقيق على 443 منطقة دماغية، مع قوة كمية لافتة في منطقتي بروكا وفرنিকে المسؤولتين تباعا عن تحليل المسموع والمنطوق. ويستمر الطفل على هذه الوتيرة، فإذا وجد مرافقة أسرية واعية، وتعلّما مبكرا ملائما سيتمكن من تحصيل عدّة معجمية تصل إلى 5000 كلمة عند سن الخامسة، وتمكّنه هذه العدّة بعد دخول المدرسة من تثميرها ب 3000 كلمة جديدة سنويا، وسنجدّه على أعتاب البلوغ، فردا قوي الشخصية، عميق الثقة بالنفس، لأنه قادر على استعمال 15000 كلمة في اليوم الواحد.

الكلمات المفتاحية: المعجم المدرسي - الطفل - التخطيط - ميلاد الكلمات .

يوضح البحث العلمي، من جهة أخرى، أن قصّة الطفل مع الكلمات مبكرة جدا، إحدى الدراسات الرائدة في هذا المجال كشفت لنا أنّ الطفل يطلق خلال سنوات نموه الثلاثة الأولى 16.000.000 محاولة للكلام، تمكّنه من تثبيت نحو 520 كلمة تامة (مُدخلة إفراديّة)، ويبقى التطوّر المعجمي والدّلالي اللاحق مرهونا بجهود الأبوين، ومدى حضور المعينات السياقية (الفضاء والأشياء)، فضلا عن العادات التعليمية المبكرة، لا سيما القراءة والكتابة والرسم.

إن المعطيات الآنفة ذات أهمية بالغة فيما يتعلق بالصناعة المعجمية الموجهة للأطفال، لأنّ هذه الصناعة بوصفها مجالا متعدد التخصصات في صيغته العالمية

الراهنّة، ينبغي أن تستفيد من التحقيقات المنهجية المنتظمة التي توضح المراحل المبكرة لاكتساب اللّغة، وكيف تنبثق الكلمات على ألسنة الأطفال ثمّ تتطور وتنمو أرصدهم الإفرادية ولا يصابون في أوّل سنواتهم الدّراسية بالعيّ والحصر الدلالي، أو ما يسمّى حاليّاً بتآكل اللّغة (language attrition). والبحث الذي نقترحه يحاول أن يزوّد الخبراء والمختصّين في صناعة المعاجم المدرسية بحصاد التحقيقات العلمية الجارية في حقل اكتساب اللّغة الأولى فيما له صلة باكتساب المفردات وطرق تثميرها وتطويرها، ونعتقد أنّ هذه المعطيات ستكون خير عون لهم في القضايا الملّحة الخاصّة باختيار المادّة وتوزيعها، بالإضافة إلى الأهمية الحاسمة للمعينات السياقية وطرق التغذية النّظمية الناجعة.

مقدمة:

يطرح التّأليف المعجمي الخاص بأطفال المدارس جملة من المطالب والشروط المبدئية التي لم يتوصل فيها إلى حلول لائقة رغم تقادم الأمد وشدّة اهتمام المسؤولين والمربين بمعالجتها، وتظهر قضية اختيار المادّة اللّغوية الملائمة لاحتياجات الطفل في كل أحواله وأطواره ملحّة إلى أقصى الحدود، لأنّ الظفر بهذا المكون الأساسي من شأنه أن يضع الكثير من الأمور في نصابها وبالذّات المسائل العامة المطروحة بخصوص تدني الملكة اللّغوية والقدرة على الفهم والتحليل المنطقي، ونحن نعتقد أنّ إنجاز هذه المهمّة لا يمكن التوصل إليه إلّا بتضافر جهود الخبراء والباحثين والمربّين من كلّ الميادين والاختصاصات ذات الصّلة، حتى تكون بين أيدينا صورة أوسع عن حقيقة الوضع الراهن، وما نحتاج بالفعل إلى أن نسرّع في القيام به.

لقد حظيت قضية الرصيد اللّغوي الخاص بالطفل باهتمام بالغ لدى المسؤولين محليّاً وعربيّاً، نشير في هذا الصدد على سبيل المثال إلى اقتراح الأمانة العامة لجامعة الدول العربيّة (مشروع المفردات المدرسية)، وما أوصت به المجامع ومؤتمرات التعريب منذ 1961م إلى عهد قريب، فضلاً عن مشروع الرّصيد الوظيفي لأطفال المغرب العربيّ الذي تمّ ترسيمه في الجزائر سنة 1974م. إنّ هذه الجهود أدّت أدواراً مقدورة وعالجت قدر المستطاع المشاكل التي طرحت باعتبار الزّمان والمكان، وإنّ نفس الانشغال ما زال مطروحاً، ذلك أنّ الطفل الجزائري في مطلع الألفية الثالثة تواجهه تحديات هائلة على مستوى استيعاب المعرفة والنّهل من مصادرها، وهو في الوقت نفسه بحاجة ماسّة إلى أن تتوفر له العُدّة اللّغوية والمعرفية التي تؤهله للتعلّم والإبداع. هذه القرائن الواقعية

والمنطقية تجعل تجديد النقاش العلمي حول التأليف المعجمي لأطفال المدارس قضية حيوية ومسألة إستراتيجية بكل معنى الكلمة، وهذا ما نحاول العناية ببعض جوانبه في الفقرات الآتية.

1. اكتساب المفردات وتطويرها عند الطفل:

يكتسب الطفل الصغير مكونات لغته الأم بطريقة عفوية، وباستثناء شذوذات طفيفة، يمكن لأي طفل في أي نطاق من العالم أن يُحكّم النظام النطقي العام للغته الأم مع إتمامه السنة الثالثة من عمره، يصطلح على جهود الطفل في هذه المرحلة بالاكتساب، لتمييزها عن الجهود الأخرى التي يبذلها بطريقة منظّمة ومقصودة وهي المصطلح عليها بالتعلم.

إن الاكتساب في معظمه عمليات جوانية تحدث بصفة مكثّفة داخل التقاطعات الفزيوعصبية في المجال الإدراكي والنفساني للطفل، وفي نفس الوقت الذي تنمو فيه أطراف الجسم وتكويناته العضلية، ينمو الدماغ محققاً معدلاً صاروخياً في العام الأول من الميلاد، وتنمو اللغة ولا سيما الذخيرة الإفرادية محققة طفرة مفاجئة في نفس التزامن، ومن المعقول تقوية الافتراض الذي يلاحظ التلازم الدالي بين نمو الوحدات اللغوية الإفرادية وانبثاق النطق الصحيح على لسان الطفل مع النمو المتسارع للدماغ ولا سيما منطقتي النطق والاستماع اللتان يظهر التصوير الدماغى الوظيفي شدة تلاحمهما مع منطقة الحركة.

مسار تطور نمو الدماغ بدلالة الزمن ←						
الميلاد	السنة 1	السنة 3	السنة 5	السنة 7	السنة 10	النضج
↑%25	↑%75	↓%85	↓%92	↓%95	↓%98	%100

[جدول 1]: تطوّر نمو الدماغ منذ الميلاد حتى النضج، يظهر وتيرة جد متسارعة خلال

السنة الأولى، وتباطؤاً حاداً بعد السنة الثالثة من ميلاد الطفل. المصدر: Patricia Kuhl and Andrew Meltzoff. Institute for Learning and Brain Sciences, University of Washington, Seattle, 2014.

في نفس الوقت الذي ينمو فيه جسم الطفل تنمو حواسه ويتطوّر كلامه كما تتطوّر قدراته الذهنية وإدراكه الدلالي. وبعد أن يرسّخ العلاقات التقطيعية ويتفطّن إلى أوّل مستويات الدلالة وعلاقاتها، سيفاجئنا باكتشافه للنوع الثالث الحاسم من العلاقات ألا وهو العلاقات البنوية، فيفطن إلى ترابط الحروف الذي ينشئ الكلم المفردة، ثم ترابط الكلم الذي ينشئ التراكيب والجمل والكلام في حد ذاته.

وعندما ينحل عن الطفل الإبهام الإدراكي ويتفكك تلاحم الذات بالموجودات ولو بمقدار ضئيل، تظهر عنده القدرة على تحليل الأحداث، فيميز في بعض الأحيان بين ذاته وما يقع عليها. وتنمو قدرته على التحليل بالموازاة مع الإبهامية الحسو-حركية التي ترافقه مدة طويلة ولن يتخلص منها نهائيا حتى يناهز البلوغ في السنة الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمره.

تظهر القدرة التحليلية بوضوح عند الشهر الثلاثين، وهي التي ستمكّن الطفل من إدراك صياغة الكلام، في المستويين الأدائي والدلالي، فنلاحظ إدراكه لبعض ألفاظ الكبار حال تجرّدها الكامل عن المعينات التوضيحية؛ كالإشارة أو الإيماء أو لحظ العين، وتفسير ذلك أنّه استطاع أن يجرّد هذه الأدلة اللغوية من قرائنها السياقية الجزئية، ثم يعمم استعمالها بتوسيع مجاله على أحوال كثيرة أخرى، بضابط المعنى المشترك. ويتضح مرّة أخرى أن تطوّر الفهم والدلالة عميق التلاحم مع تطور الجوانب الهيكلية الرّاجعة إلى بناء الكلام وصياغته، والعكس صحيح.

تأتي بعد ذلك لحظة فارقة في مشوار الاكتساب يفاجئنا فيها الطفل باكتسابه كثيرا من الصّيغ ومواضع الكلم وبعض الأدوات النحوية على نحو سريع جدّا. ونراه يتخلّص من لغواته ويعوّضها بكلم صحيحة، وقد ترافقه اللّغة في هذه المرحلة، وعلتها عندنا تأثير البيئة؛ وقد أكدت دراسات كثيرة، منها ما أنجز في أوروبا على عدد كبير من الأطفال ينتمون إلى بيئات ثقافية واقتصادية متفاوتة، أن كثرة الخطأ عند الطفل مرتبطة طرديا بمستوى ثقافة عائلته، ذلك أن الأسر الفقيرة(1) تميل كما هو ملاحظ ومشهود، إلى مستويات عالية من الحذف والاختزال، ومن اللافت جدّا أنّ إحدى آخر الدراسات المنجزة في هذا الإطار أوضحت أنّ فارق الكلمات المستخدم بين الأسر الفقيرة والمتواضعة ثقافيّا إلى الأخرى العالية ثقافيّا يصل إلى 30 مليون كلمة (خلال السنوات الخمس الأولى)، وذلك يتسبب في فروقات هائلة على مستوى الملكة لدى الأطفال النّاشئين من كلا البيئتين، حيث إنّ الطفل في البيئة الأولى قد يفوته اكتساب آلاف الكلمات لأنّه لم يسمعها في محيطه أصلا،

وسيساهم ذلك في تشويه ملكته الدلالية ويسجل عليه ضعف فادح في التجريد وإدراك المفاهيم العلمية.

2. ميلاد الكلمة الأولى:

الكلمة هي الوحدة اللفظية ذات الاستقلال المعنوي، ولها أربع تشكلات أساسية: الاسم المطلق، الفعل المتصرف، حرف المعنى، وترك العلامة. الميزة الإجرائية التي تضبط الكلم المتمكنة هي متانة معمارها اللفظي والمعنوي داخل السياق وخارجه، وعلى ذلك، كلما حافظت وحدة معيّنة على مكوناتها التلّفُظية ولم تتلاش بفعل الانفصال أو الاتصال في مجرى الكلام استحققت رتبة عالية في الأمكنية. وتبرز أهميّة هذا النوع من الوحدات لكونها أوّل ما يكتسبه الطفل الصغير، لقد كشفت عن ذلك أبحاث غزيرة تراكمت على مدى العقود الماضية، أجريت فيها دراسات مستفيضة على مجموعات من الأطفال في بيئات متفاوتة، ولغات من أسر متباينة، خلّصت جميعها إلى الاستنتاج بأنّ أوّل ما يكتسبه الطفل هو الوحدات شديدة التمكن، ولا سيما الأسماء المرتبطة بالموجودات الحسيّة التي نسميها الأسماء المطلقة. ثم يكتسب الطفل بعض الأفعال، ومع نهاية العام الأوّل تظهر على لسانه الطفرة المعجمية، فيكتسب عددا أكبر من الأسماء وعددا إضافيا من الأفعال، وعددا لافتا من الأدوات والحروف التعويضية (خاصة تلك القائمة مقام الأسماء).

في حقيقة الأمر، هناك تاريخ مفصل وطويل في مجال دراسة انبثاق الكلمات لدى الأطفال، نشير مثلا إلى مُحاولات جادة قام بها "باتمان" (bateman) على عيّنة من 35 طفلا، وأبحاث "سميث" (smith) على عيّنة أوسع (2). الحقيقة التي تتأكد في هذا المجال حاليا أنّ البشر يوظفون مجموعة من القدرات المركّبة؛ اجتماعية، نفسية، وذهنية يراكمونها في مرحلة اكتساب اللّغة (3). وقد كشفت التحقيقات الهامّة في ميدان اللسانيات النفسية التطوريّة (4) أنّ اللّغة المبكّرة عند الأطفال قائمة على الأشياء والموجودات أكثر من قيامها على القواعد والتّعميمات (5)؛ وفقا لهذا المنظور يكتسب الأطفال في أوّل الأمر وحدات منتزعة من محيطهم القريب جدًّا، ثمّ عناصر أخرى أكثر تعقيدا من جهة البنية اللفظية والوظيفيّة (أزواج من الأشياء، أشياء مركّبة من أشياء أخرى...) وهي بالتّالي وحدات مركّبة (سلاسل كلمية). يحدث ذلك في مرحلة مبكّرة، قبل أن يبدأ الأطفال في تعميق المعرفة النحويّة المجرّدة (الكلمات بالمعنى النحوي، الجمل المركّبة إسناديًا...).

البحث العلمي الجاد يحاول الاستعانة بالوسائل التقنية الجبّارة في محاولة لمراقبة عملية الكلام لحظة بلحظة على مدار الأربع والعشرين ساعة، ونجد على سبيل المثال

الباحث المختص في علم الإدراك بمعهد ماساشوسيتس (ديب روي Deb Roy) قام بتحويل منزله إلى مختبر لغوي جهّز كل غرفه بأجهزة تصوير عالية الدقة، ولاقطات للصوت موصولة عن طريق الكابلات بحاسوب مركزي لتخزين المعلومات، والحاسوب موصول من جهة أخرى بفريق عمل متخصص يقوم بتسجيل أدنى صوت ينطقه الطفل على مدار الساعة(6).

يعتقد الباحث وفريقه أنّ هذه التجربة هي ميلاد لنوع جديد من التحقيقات العلمية اللغوية أطلق عليها اسم: كلام المنزل كمشروع للبحث (speech on Project home) يتم في هذا النمط الجديد، أو البيئة الاستعلامية الخاصة، الملاحظة التجريبية المنتظمة لأكثر جوانب اللغة البشرية غموضاً، ذلك المرتبط بكيفية ميلاد الكلام والشروط المرافقة لهذا النشاط الخلاق.

تقوم الكاميرات والملتقطات الصوتية بتسجيل كل لحظة من حياة الطفل، منذ لحظة ميلاده حتى يُتمّ ثلاث سنوات من عمره. يتمّ تسليط اهتمام مركز على أدقّ الجزئيات، وخاصة العمليات التي تتطلبها اللغة حتى تخرج للوجود.

الهدف من هذا المشروع هو: فهم المراحل المبكرة لتشكّل اللغة، وتحديد الجوانب النمطية لهذا التشكيل؛ يؤكد الباحثون أنّ الطفل ينتقل من الإنغاء (babbling) إلى استخدام الكلمات المفردة بوصفها طلبات وأوامر تامة، ثمّ ينتقل إلى ما يسمى مرحلة الكلمتين؛ حيث يجمع بين كلمتين (نغوتين) مثلاً: (مزيدا من الحليب / more milk)، وبعد ذلك -وبسرعة لافتة للنظر- تظهر في كلامه مجموعة كبيرة من التراكيب المعقدة نحوياً(7).

مع بلوغ الطفل سنته الثالثة وإغلاق مرحلة تسجيل البيانات غطى الفريق حوالي 240.000 ساعة من المعلومات، تتضمن 16.000.000 كلمة (بما في ذلك محاولات التصحيح والتكرارات) تمّ تسجيلها وتنظيمها في سجلات رقمية خاصة. وبفضل نوعية التجهيزات، والبيئة التجريبية الآنية، تمكّن الباحثون في هذا المشروع من تسجيل اللحظة التي ولدت فيها أوّل كلمة صحيحة نطق بها الطفل، بالإضافة إلى سجلات دقيقة لميلاد كل الكلمات الجديدة صوتاً وصورة. في الفترة الحرجة من عمر الطفل (9-24 شهراً=13 شهراً) سجّل الباحثون ميلاد 517 كلمة داخل مدوّنة من الكلام تحتوي على 400.000 كلمة، أو محاولة للكلام. توضح من هذه التحليلات أنّ الطفل يبذل جهوداً هائلة للتحوّل من النطق الخاطئ إلى النطق الصحيح للكلمة؛ مثلاً كلمة: الماء (water) أوّل كلمة صحيحة نطقها الطفل تطلبت الانتقال من نطق خاطئ إلى آخر طيلة شهور، كرر خلالها الطفل المحاولة

مع هذه الكلمة 504 مرات (8). اللافت للنظر أيضا أن التزام الأبوين بالنطق الصحيح، والصبر على محاولات الطفل اللانهائية هو عامل آخر بالغ الأهمية، وقد استطاع الباحثون في هذا المشروع رسم صورة ثلاثية الأبعاد للحركة الانتقالية المشتركة بين الطفل وأبويه حول المنزل، فوجدوا أن المنطقة التي تمثل منوالا (أكبر تكرار) لكلمة الماء هي: عند باب المطبخ، وأن الطفل لا يتكلم تقريبا إلا في حضور الوالدين معه، وحضور المعينات السياقية (الكوب، الثلجة، القارورة،...).

يقول الباحث ديب روي: خلال العام الأول كان ابني يستعمل اللفظ (ga ga) ليشير إلى الماء، وبعد عدة أشهر تعلّم كيف يقارب ببطء النطق القياسي للكلمة (ga ga- wa ga- wa) وهذا ما جعله يستنتج، مبدئيا، أن تكون اللغة عند الطفل ليس قضية غريزية بحتة، وإنما هو مسألة فيها الكثير من التعلم والتدريب، ويتضح هذا الأمر من خلال الجهد الذي كان يبذله الوالدان لتحفيز الطفل على الكلام وإسماعه النطق الصحيح مرات كثيرة جدا.

3. تأثير المخزون الإفرادي على التحصيل الدراسي:

الأدلة المنطقية والعملية حول العلاقة الطردية بين حجم مفردات الطفل (قاموسه اللغوي المخزن في الذاكرة طويلة المدى) ومستوى كفاءته في مهارات التعلم الأساسية، لا سيما القراءة والكتابة والتعبير الشفوي، كانت متوفرة منذ عقود، والحق أن بعض المربين ذوي الخبرة كانت لديهم حدوس صائبة في هذا الإطار.

العلماء من جهتهم حاولوا أن يوظفوا حصاد المعرفة العلمية المتراكمة لحل مشكلة الفروقات الكبيرة الملاحظة على نتائج الأطفال في مرحلة الحضانة، والتي تستمر كدالة متزايدة رأسيا خلال السنوات اللاحقة من مشوارهم الدراسي. تساءل الباحثون عما يحدث داخل الأسر، فمن المحتمل أن يكون فيه تعليل لبعض ما يواجه التلاميذ، وقرر الباحثون زيارة اثنتين وأربعين أسرة في منازلهم، ومراقبتهم ساعة كاملة في آخر كل شهر منذ الشهر السابع لميلاد الأطفال حتى إتمامهم العام الثالث. الملاحظات الأساسية التي كشفتها النتائج بعد نهاية فترة الاختبار تركزت فيما يلي:

❖ لم تسجّل أية فروقات جديرة بالاهتمام فيما يتعلق برعاية الأطفال، فقد حظوا جميعا بالحب والعناية اللائقة.

❖ لم تسجل أية تأثيرات لافطة فيما يتصل بالأصل العرقي، الفروق الاقتصادية، عدد أفراد الأسرة، ونوعية المحيط المجاور.

❖ مفتاح الفوارق المعرفية الشاسعة، وحول الملكة اللغوية تحديداً، هو المدة التي يقضيها الأبوان في التواصل المباشر مع الطفل، وقد صنف الباحثون هذا الوقت بدلالة كمية الكلمات (9) التي يسمعها الطفل منهما إلى ثلاثة مستويات؛ المحترف، المتوسط، الضعيف، ظهر أن المستوى الضعيف يمنح الطفل كمية كلمات قدرها 11 مليون كلمة، المتوسط 24 مليون كلمة، المحترف 43 مليون كلمة، وقد وصل الفارق بين الأول والثالث أكثر من 30 مليون كلمة، وهو بالفعل فارق هائل.

تمثل هذه النتائج أهمية قصوى لأن التطور العصبي للدماغ ولا سيما على مستوى المشتبكات مرتبط بكمية المفردات من جهة، وبالوقت الذي تقال فيه من جهة أخرى، وكلما تكررت الكلمة قوي ارتباطها في المشتبكات وتحولت إلى جزء من القسم المحكم في الملكة، وبه تزداد القابلية للتعلم، والعكس صحيح، فعدم التكرار المنتظم للمفردة يؤدي إلى تمزق المشتبك العصبي وموته، ومع الأسف، تفيد الدراسات بأن فرصة استرجاعه ضئيلة جداً، وذلك يعني أن ما فقده الطفل في هذه المرحلة الذهبية غير قابل للتعويض من جهة النصوص وشدة الانصهار في مضمون الملكة.

يظهر تحليل نتائج الدراسة أن هذه الآلية، آلية اكتساب الكلام والمفردات على وجه التحديد، لا تتعلق بآلية الإدراك السمعي فقط، لأن الطفل قد يسمع من التلفاز لا كنا وجدناه لا يكتسب منه شيئاً تقريباً، ويبدو التلفاز بالنسبة للطفل في الشهور الستة الأولى كالوجه الجامد؛ مثير للانزعاج والقلق، ونعلم أيضاً أن الطفل الأصم يتعلم اللغة، فاللغة هي مجموعة علامات.

السؤال الجوهرى الذي يقفز من خلال هذه الدراسة يكمن في تحديد المدى الذي يبلغه تأثير هذه الفجوة الإفرادية على الأطفال، يلخص الباحثون الجواب فيما يسمى العجز المعجمي (10)؛ حيث إن الأطفال من المستوى الثالث حصدوا في نهاية السنة الثالثة مفردات لا تتجاوز 500، في حين بلغ حصاد الأطفال من المستوى الأول أكثر من 1000 مفردة.

تقودنا هذه التجارب بحق إلى مراجعة برامجنا التعليمية والإعلامية والأسرية، لا سيما تلك المتصلة بالتعليم المبكر، وملف التغذية اللغوية (Language Nutrition) لأن اللغة

هي جزءاً لا ينفصل عن صحة الطفل وسلامته، وقد ثبت أنها جزء أساسي من مكونات نمو الدماغ، وهي بلا شك الركيزة لكل مظاهر التعلم الممكنة عند الكائن البشري. إن نمو اللغة كما مربنا يعني نمو أجزاء حاسمة من الخلايا العصبية، التي بها تتطور جوانب أخرى عظيمة الشأن في حياة الطفل ومستقبله، كالذاكرة والمنطق والمخيلة، وهذه الآليات الفزيو-عصبية هي قوام نشاطي القراءة والكتابة، وقوام كل برنامج طموح للتنمية طويلة المدى.

في التجربة المرجعية الأنف ذكرها، رجع الباحثون إلى نفس الأطفال المشاركين بعد خمس سنوات، فذهلوا من الفروق المرصودة، بلغ معدل تحصيل المستوى الأول أكثر من 5000 مفردة، حيث لعبت هذه الذخيرة دوراً حاسماً في تحصيلهم الدراسي ومعدلاتهم في الاختبارات الرسمية.

إن هذه التجربة ونظائرها تخبرنا الكثير حول الجذور العميقة لمشاكل التحصيل الدراسي، ولا سيما التفاوت النسبي الواسع الذي يهدد السيولة الطبيعية لعملية التعلم، ويخلق تعقيدات متراكمة لكل الأطراف المعنية.

لاحظ الباحثون مثلاً الأهمية القصوى لبعض الأعمار بوصفها فترات مفتاحية للتعلم، وقد تم التأكيد على مرحلة ما قبل ثمان سنوات فيما يتصل بالحصيلة المعجمية، والميكانيزمات المهمة لتعليم القراءة والكتابة. ويظهر جلياً الدور الفعال لحصاد الاكتساب المبكر في التغلب على الفشل الإدراكي وظاهرة إنهاك اللغة وتآكلها (language attrition).

ونحن نعتقد أن البحث العلمي حول اكتساب الطفل للذخيرة المعجمية (من الألفاظ العامة والخاصة والكامنة) ينبغي أن يستثمر هذه الانجازات وما أظهرته من جديد في المعارف والمناهج من أجل أن يخبرنا المزيد بخصوص الزمن الافتراضي الذي يتعاضد عنده احتمال تخزين الطفل للحصيلة الكلامية، إن الإحصاءات المصرح بها حول هذه الجوانب، رغم تقادمها، والهبات المأخوذة على مناهج تجميعها، هي بحالتها الراهنة جالبة لكل القلق حول مستقبل أطفالنا، وكيف سنساهم باستمرارنا في هذه الطرق العقيمة بإفقادهم متعة التعلم والقابلية الذهنية والعاطفية للقراءة المكثفة والكتابة والإبداع.

4. علاقة الاكتساب المبكر للمفردات بقضايا الاختيار والتوزيع:

تعلّم اللغة يعني التحكم في أعظم الأدوات الموصلة إلى المعرفة والفهم، وليس غريباً أن تكشف لنا الدراسات المتراكمة العلاقة الطردية بين مستوى التحصيل اللغوي ومعدل

التحصيل الدراسي بوجه عام، فقد أصبح متعارفا عليه في نطاق واسع من المجتمع العلمي والتربوي أن للتمكن من ناصية اللغة تأثيرا مباشرا على التمكن في معظم المواد الأخرى، سواء في ذلك المواد الإنسانية أو الطبيعية. سنجد الباحث "ستنكيفيتش"، في دراسته المعيارية بتكليف من وزارة التعليم الكندية يفاجؤنا بالارتباط الدالي بين الحصيلة اللغوية عموما والعدة المعجمية خصوصا مع معدل تطور المهارات التعليمية الأساسية؛ القراءة والكتابة والتعبير الشفوي. وأكثر من ذلك، أكدت الدراسة ذاتها أن الطفل الذي يفقد - لسبب ما- الفرصة في تعظيم محصوله اللغوي في الفترات المبكرة (قبل المدرسة، التحضيري، الثلاث سنوات الأولى من المرحلة الابتدائية) سيكون من المستحيل أن يعوض هذا النقص، وسجلت الدراسة أن هذا النقص والافتقار سيلزم التلميذ حتى الأطوار العليا (الثانوية) ويحدث عواقب وخيمة على مستقبله.

يتضح من الدراسات السابقة أن الصعوبة في تحصيل الملكة اللغوية لا تتركز فقط في صعوبة تعلم القواعد النحوية، بل تنسحب بدرجة مماثلة على عدم استجابة المادة اللغوية التي يجدها المتعلم في نصوص الدرس للمقاييس التي تفضي إلى تعليم فعال ومفيد(11). وتظهر عمليات الرصد التصفحي للكتب الدراسية الموجهة للطفل عيوباً ونقائص بالغة التأثير من الناحيتين الكمية النوعية:

النقائص النوعية	النقائص الكمية
1-معظم المفردات لا تغطي الحاجات اليومية. 2-كثرة المترادف بغير مسوغ دلالي أو سياقي 3-افتقار كبير في المفردات الدالة على مفاهيم الحضارة العصرية وآخر الاختراعات والاكتشافات 4-نسبة تغطية هزيلة: 2500 مفردة ← 600 مفهوم= (حوالي 2000 مفردة من قبيل الزيادة والحشو) 5-لفظ واحد للدلالة على مسميات مختلفة ← غموض واشتراك محير في لغة النصوص العلمية ولغة التعليم المبسطة.	عدد ضخم من المفردات (معدل 2000-2500) فضلا عن التراكيب المتكونة منها. هذا يؤدي إلى غرابة فيما يخص المفاهيم الجديدة ← توقف آليات الاستيعاب الذهني وشعور الطفل بالحصر والعجز الدلالي.

5. أهمية المعينات السياقية والتغذية الراجعة:

بوصولهم إلى الشهر الثامن عشر يكون الأطفال قد كدّسوا عُدّة معجمية تتراوح في المتوسط بين 50-100 كلمة (مدخلة إفرادية)، وستواصل هذه الآلية مشوارها التصاعدي حتى تبلغ عدة آلاف وحدة مع بلوغ الطفل سن السادسة. ويلاحظ أن محاولات التعميم السياقي التي يفرط الطفل منها ستكون خير معين على تبلور الجوانب العميقة من ملكة اللغة، ونقصد بها العمليات المسؤولة عن الربط بين اللفظ المنطوق والمعنى المدرك، ومن قبيل التجاوز الاصطلاحي تسمى هذه المحاولات أخطاء وليست في واقع الحال أخطاء لأنها مرحلية وغير مقصودة.

تتوزع المحاولات التي يقوم بها الطفل بين نوعين من التعميم؛ أحدهما التعميم الموسع وهو الأكثر والأظهر، وذلك عندما يمدد الطفل من المجال الدلالي للمفردة على مستوى الفئة أو العدد، فنجدّه إذا اكتسب كلمة (بابا) يطلقها على كل رجل كبير، أو (كورة) لكل شيء مدور (التفاحة، البيضة...)، أو (طيارة) لكل كائن صغير يطير كالذباب والبعوض ونحوه. وقد لاحظنا أن التعميم الموسع يرتبط غالباً بالأشياء الحسية القابلة للتقدير المباشر كالبحر والأشكال، والأصوات وتباين السطوح.

يتموضع التطور المعجمي في منطقة حساسة للغاية، فقد قادتنا ملاحظتنا المستمرة، بالإضافة إلى الجهود المبذولة عالمياً في هذا المجال إلى تقوية هذه القناة، وعندما نطل على رحلة النمو اللغوي من منظور شامل سنلاحظ أن المكتسبات الأولية تخدم بقوة وانتظام مثير للدهشة العمليات المتأخرة نسبياً على مستوى المعجم والدلالة، ينطبق ذلك فيما يتصل بنظام التمايزات وخواص الحزم الذي يشكل قاعدة النظام الصوتي-الحرفي (الفونولوجي)، أو الترتيبات الضابطة للأصول الثلاثة، وهي قاعدة الميزان الصرفي، ثم بداية التركيب مع العبارات الأحادية الكلمة، والتي نطلق عليها في النظرية الخيلية اسم اللفظات بوصفها منوالاً للكلام.

أغلب اللفظات الأولى التي تظهر على لسان الطفل تكون أسماء وصفية للأشياء الموجودة حوله، ثم يتمكن الطفل من استخدام هذا النمط من العبارات للدلالة على أشياء تخصه، وهذا في الحقيقة منطلق العمق الدلالي في مشوار الملكة، ذلك لأن الطفل في هذه الأثناء ينقل دلالات عن مشاعر وربما أفكار بالمعنى البسيط للكلمة. ورغم شح الأدلة القوية في هذا المنعطف إلا أننا نسجل هنا إمكانية لائقة للافتراض بأن تشابك حاجات الطفل مع رصيده الذي ينمو يؤسس للمرحلة اللاحقة من التطور اللغوي وهي

مرحلة الكلمتين. مع العلم أن الكلمتين هما في تصورنا كلمة واحدة على الأقل ضمن النظرية الخيلية.

والتطور الدلالي في أبسط تحديداته الإجرائية هو القواعد التي تخوّل الربط بين الكلمة المفردة والمعنى المطابق لها، ومسألة المطابقة هي بلا شك خاضعة لمعدل مرتفع من النسبية والترجيح، وسيلعب المعجم والرصيد الإفرادي المكتسب أهم الأدوار في هذا المستوى، وللوفاء بالمتطلبات المتشعبة لهذا المظهر يساهم البحث العرفانيّ حالياً في مساءلة العملية على المستوى العصبي، وذلك فيما يخص المعجم الذهني. وتشير الدراسات في هذا الخصوص إلى أن العمليات الإجرائية المطلوبة مركبة وأكثر تعقيداً مما يبدو، فالطفل قد يضطر إلى المراوحة بين الإدخال والاحتفاظ المؤقت ثم الإخراج أكثر من 500 محاولة للوصول إلى تثبيت نهائي يتعلق بمدخله معجمية واحدة، وقد يستغرق هذا النشاط المكثف والدؤوب فترات طويلة تتراوح بين 3-9 أشهر.

نتائج الدراسة:

يتضح من خلال الفقرات السابقة أن إعداد المعجم المدرسي هو قضية حساسة للغاية، ويلعب أكبر الأدوار في تعظيم مفعولات التحصيل الدراسي، وكذا النمو المعرفي والاجتماعي والمهاري للطفل عبر مراحل تعلمه، ولأحظنا الأهمية القصوى لتمكين الطفل من العدة المعجمية في أبكر المراحل الممكنة، علماً أن البحث العلمي الجاري حالياً يخبرنا بأن الطفل يبدأ في تعرف أصوات اللغة، ويكتشف تمايزاتها، ويفرق بين ثنائية الصوائت والصوامت وهو ما يزال جنيناً عائماً في رحم أمه، هذا كله من شأنه أن يحفزنا على تغيير نظرنا للمعجم عموماً، ولمقاييس اختيار وترتيب المادة اللغوية داخل المعاجم ومن ثم في داخل المنهاج الدراسي المقرر، ولا شك أن الوصول إلى هذه الغايات النافعة ممكن وغير بعيد، شريطة التحلي بالجدية اللازمة، وتعميق أواصر النقاش والتكامل العلمي بين التخصصات والميادين المعنية بهذا الأمر، فمن الواضح أن هذا العمل يحتاج إلى جهود العقول الخبيرة في الصناعة المعجمية فضلاً عن المساهمة السخية من زملائهم في اللسانيات العامة والتطبيقية، بالإضافة إلى توصيات الباحثين النفسانيين، ومن المهم أيضاً أخذ ملاحظات السادة المربين المستفاعة من عين المكان في أعلى درجة ممكنة من الأولوية والاهتمام.

الإحالات:

- (1) لا يقصد الفقر المادي، بل الفقر الثقافي والأكاديمي، وقد يؤثر الأول جزئياً، فقلة موارد الأسرة ستحول دون توفير مواد دراسية جيدة من كتب وقصص ونحوها للطفل.
- (2) مصطفى فهمي، أمراض الكلام، ص48.
- (3) Evans and Green, Cognitive linguistics, p125
- (4) اللسانيات النفسية التطورية: evolutionary psycholinguistics
- (5) يشار إلى هذه الثنائية: الموجودات/ القواعد (item based/ rule based) في الأدبيات العرفانية المعاصرة في نظرية الرصيد اللغوي القائم على الاستعمال (Usage-based account).
- (6) أنظر: DeB Roy (2009): New Horizons in The Study of Child Language Acquisition. International Speech Communication Association. Brandon C Roy, و: Michael C Frank and Deb Roy (2009) Exploring Word Learning in a High-density longitudinal Corpus. Cognitive Science Society.
- (7) Deb Roy, New Horizons, p5.
- (8) يجب أن نلاحظ بأن الطفل لا يحاول مع هذه الكلمة فقط، بل هناك الكثير من الكلمات الجديدة في قاموسه، والعجيب أنه يستخدم نفس الطريقة في التحول التدريجي من النطق الخاطئ إلى الصحيح بكثير من الصبر والمثابرة.
- (9) ليس المقصود هو المفردات بوصفها قائمة معجمية، وإنما كل وحدات الكلام وأقسامه، التي يناسبها مصطلح الكلم.
- (10) العجز المعجمي (Vocabulary disability) هذا العجز كما يعرفه بعض علماء النفس العرفاني هو مجموعة من العوامل التي تمنع الفرد من إنجاز الأعمال التي بإمكان أغلب الأفراد من نفس فئته النضجية القيام بها دون عناء. ونلاحظ أنهم كثيراً ما يخصصون هذا المفهوم للأعمال البديهية، أو الأفعال التلقائية، ونحن نرى تعميم تأثيره على كل الأحداث والأفعال المقصودة وغير المقصودة.
- (11) عبد الرحمن الحاج صالح، الرصيد اللغوي للطفل العربي وأهمية الاهتمام بمدى استجابته لحاجاته في العصر الحاضر، مجلة الممارسات اللغوية، ع1، 2010.

المراجع والمصادر:

- (1) أندريه مارتينييه، وظيفة الألسن وديناميتها، تر: نادر سراج، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، ديسمبر 2009م.
- (2) إيان تاترسال، كيف صرنا بشراً، مجلة العلوم الكويتية، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، مج18، ديسمبر 2002.
- (3) حسام سعيد النعيمي، أصوات العربية بين التحول والثبات، جامعة بغداد، سلسلة بيت الحكمة، ع4، 1989م.

- (4) جورج يول. معرفة اللغة. تر: محمود فراج عبد الحافظ. دار الوفاء-الإسكندرية-مصر، 1999م.
- (5) جاك ريتشاردز، تطوير مناهج تعليم اللغة، تر: ناصر بن عبد الله غالي وصالح بن ناصر الشويخ، 2001م.
- (6) راينر وآخرون، كيف يجب تعليم القراءة، مجلة العلوم الكويتية، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، مج19، يوليو 2003.
- (7) ربيكا أكسفورد، استراتيجيات تعلم اللغة، تر: السيد محمد دعرور، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، ط1، 1996م.
- (8) رشدي احمد طعيمة ومحمود كامل الناقة. تعليم اللغة اتصاليا بين المناهج والاستراتيجيات. المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، إيسيسيكو، 1427هـ/2006م.
- (9) رضي الدين الإستراباذي (ت686هـ)، شرح كافية ابن الحاجب، تح: محمد محي الدين عبد الحميد وآخرون، دار الكتب العلمية-القاهرة، 1982م.
- (10) روبرت بلومين وجون فرايز، وراثيات القدرات المعرفية، مجلة العلوم الكويتية، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، مج14، يوليو 1998.
- (11) ستيفن بينكر (Steven pinker)، الغريزة اللغوية. تر: حمزة بن قبلان المزيبي. دار المريخ-الرياض-المملكة السعودية-2000م.
- (12) ستيكس، كيف يمكن تنشئة متعلم أفضل، مجلة العلوم الكويتية، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، مج28، يوليو 2012.
- (13) سيوييه، الكتاب، تح: عبد السلام هارون، ط1986م.
- (14) عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، تح: عبد السلام الشداوي، بيت الفنون والعلوم والآداب، الدار البيضاء، ط1، 2005م.
- (15) عبد الرحمن الحاج صالح. بحوث ودراسات في اللسانيات العربية (جزآن)، موفم للنشر، الجزائر، ط1، 2007م.
- (16) —.، بحوث ودراسات في علوم اللسان، موفم للنشر، الجزائر، ط1، 2007م.
- (17) —.، السماع اللغوي العلمي العربي ومفهوم الفصاحة، موفم للنشر، الجزائر، ط1، 2007م.
- (18) —.، منطق العرب في علوم اللسان، موفم للنشر، الجزائر، ط1، 2012م.
- (20) —، الرصيد اللغوي للطفل العربي وأهمية الاهتمام بمدى استجابته لحاجاته في العصر الحاضر، مجلة الممارسات اللغوية، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، الجزائر، ع1، 2010م.
- (21) —، اللغة العربية الفصيحة المنطوقة ودورها في المجتمع العربي، مجلة المجمع الجزائري للغة العربية، ع13- سنة7- رجب 1432هـ/ جوان 2011م.
- (22) عطية سليمان احمد، النمو اللغوي عند الطفل: دراسة تحليلية، دار النهضة العربية-القاهرة، 1993م.

- (23) كولین رینفراو، التنوع اللغوي العالمي، مجلة العلوم الكويتية، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، مج 11، يوليو 1995.
- (24) لاورا بیرک، لماذا يتحدث الأطفال إلى أنفسهم، مجلة العلوم الكويتية، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، مج 11، سبتمبر 1995.
- (25) لیرا بورودستسکی، تأثير اللغة في تفكيرنا، مجلة العلوم الكويتية، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، مج 29، يونيو 2013.
- (26) محمد عماد الدین إسماعیل: الطفل من الحمل إلى الرشد. دار القلم-الكويت، 1995م.
- (27) مصطفى فهی، أمراض الكلام، دار مصر للطباعة، ط 5، 1998م.
- (28) نوا م تشومسکی، آفاق جديدة في دراسة اللغة والعقل، تر: عدنان حسن، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سورية، ط 1-2009م.
- (29) Brandon C Roy, Michael C Frank and Deb Roy(2009).Exoloring Word Learning in a High-density longitudinal Corpus.cognitive. Sciense Society.
- (30) E. Kidd (2006). Language Acquisition Research Methods. Encyclopedia of language and linguistics. Elsevier,UK,2nd edu.
- (31) Deb Roy(2009). New Horisons in The Study of Child Language Acquisition. International Speech Communication Association.
- (32) Encyclopedia of Language and Linguistics, Elsevier, UK, 2nd Edu, 2006.
- (33) Encyclopedia of Language and Education, Springer-education, Philadelphia, 2nd Edu 2008.
- (34) Jean-Adolphe Rondal (2006).Expliquer l'acquisition du langage: caveats et perspectives. Mardja,Belgique.
- (35) Jean Piajet (1967). La Psychologie de l'intelligence. Presses universitaires de France.
- (36) Christine Jernigan(2015),Family Language Learning:Learn Another Language, Rise Bilingual Children.
- (37) M Berns & K Matsuda(2006),Applied Linguistics : Overview & History, Elsevier Encyclopidia,UK.
- (38) Paul Bloom(2000),How children learn the meanings of words, MIT press.